ثمة حالة من النشوة، يعيشها حكام إيران هذه الأيام، ومرد ذلك أنهم يتقدمون في العراق وسورية واليمن، وقبل ذلك لبنان. إنهم، على ما يبدو، يمرون بلحظة فارقة في تفكيرهم، أو علاقتهم بتاريخهم، إلى حد أن أحد مساعدي الرئيس الإصلاحي، حسن روحاني، تحدث عن عودة الإمبراطورية الفارسية واختار لها بغداد عاصمة.

لم يخطئ حين جعل من بغداد عاصمة للإمبراطورية، لأن ذلك كان لائقاً بها زمناً طويلاً، فهي أرض حضارات إنسانية مديدة. العاصمة موجودة نعم، لكن الإمبراطورية غير موجودة، وإلا فليقل لنا السيد المدعي ما هي الحجج التي جعلته يعتبر أن هناك إمبراطورية فارسية فعلاً. ثم لماذا تحتاج هذه الإمبراطورية عاصمة خارج حدودها، ذلك أن تاريخ الإمبراطوريات القديم والحديث لم يشهد اختيار عاصمة خارج الأرض التي انطلقت منها الإمبراطورية؟

حين نشأت الإمبراطوريات وضعت لنفسها أسساً ومواصفات تطمح للديمومة والخلود. ولذلك، ظل منها شيء خالد في الحاضر في الفن والاختراعات والعمارة والزراعة. بقيت المأثورات الحضارية، على اختلافها، شواهد على أزمنة إمبراطورية غابرة، واستمرت الشعوب التي عاشت في ظلها تشهد لها بذلك، أما النفوذ والقوة والسيطرة التي تأسست عليها الإمبراطوريات فقد اندثرت مع زوالها. وفي حالة الإيرانيين، اليوم، لا نكاد نشهد غير نزعة التوسع العسكري الذي يقوم على اجتياح العالم العربي، ومنعه من صنع حاضره بيد أبنائه.

يغزون سورية واليمن والعراق، بذريعة أوهام لا تنطلي على أحد، ويرسلون الجيوش بحجة الدفاع عن مزارات، وكأن هذه المزارات لم تكن، هنا، منذ قديم الزمان، أو أن الشعوب التي يحتلون ويدمرون بلادها بلا مزارات أو رموز وخيال وفولكلور. ومشكلة الإيرانيين، هنا، تكمن في أنهم لا يريدون أن يتعلموا شيئاً من الدروس التي واجهها الغزاة في التاريخين، الحديث والقديم، وخصوصاً الإمبراطوريات التي لم تفلح في ضرب التنوع الثقافي والعرقي والديني للشعوب التي بسطت نفوذها عليها. وهكذا، خرجت الإمبراطورية البريطانية من الهند وسائر المستعمرات.

لنفترض أن هناك إمبراطورية فارسية اليوم، فماذا لديها لتصدر للشعوب الأخرى؟ ليس سراً أن إيران تعيش في أوضاع مزرية من البؤس والحرمان والقمع السياسي والثقافي والديني، وهي لا تزال محكومة بطبقة من رجال الدين الذين يرفضون كل انفتاح لبلادهم على العصر.

مشروع إيران لن يمر في المنطقة العربية، لسبب بسيط هو أن الإيرانيين يتصرفون كقوة احتلال، ولو أنهم تعاطوا مع أهل المنطقة بطريقة مختلفة، وتواضعوا قليلاً، لوجدوا أن العرب سيكونون فخورين بهم، لأن عناصر اللقاء أكثر من عناصر الافتراق، لكن الطبقة السياسية الحاكمة في إيران تبدو راكبة رأسها، وعلى درجة كبيرة من التعالي على العرب الذين يظلون، مهما حل بهم، أصحاب حضارة عمرها ملايين السنوات، كان لها فضل كبير على الفرس عندما احتضنتهم وقدمتهم للبشرية في فترة ازدهارها، ولم تنظر إليهم كغرباء عنها، بل أبرزت علماءهم ومبدعيهم من منظور الثقافة الإسلامية، ذات الأفق الرحب.

ليس الفارق، اليوم، بين العرب والإيرانيين حضارياً، بل لدى الإيرانيين مشروعهم السياسي، والعرب في حالة تراجع، وهو ما تحاول إيران أن تستغله، وهذا لا يعني بالضرورة أن مشروعها سيملأ الفراغ في العالم العربي، لا بل إنه مشروع لا مستقبل له في منطقتنا، لأنه طائفي من جهة، ومن جهة ثانية، يحمل نفساً استعمارياً واضحاً، وهذان السببان كافيان لكي يدمر نفسه بنفسه. ثم إن إيران على وعي تام بأنها تلعب، اليوم، على قشرة الوعي في المنطقة، وهي تعرف أنها، من خلال عدّة ضعيفة حضارياً، غير قادرة على اختراق ذاكرة العرب ووجدانهم. -

كاتب المقالة : بشير البكر
تاريخ النشر : 13/03/2015
من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com